الاستيلاء على دمياط

مخطوطة أوليفر بادربورن نشرته جامعة بنسلفانيا بولاية فيلادلفيا عام ١٩٤٨ — يقع في ١١٢ صفحة من القطع الصغير

OLIVER OF PADERBORN : *The Capture of Damietta,*
translated by John. J. Gavigan

في الولايات المتحدة الأميركية حركة نشيطة ، تهدف إلى نشر مؤلفات العصور الوسطى القديمة ، عمادها الجامعات والجمعيات التاريخية والخبراء . ولذلك تطالعنا فيها كثرة المجلات الخاصة ببحوث تلك العصور وفي طليعتها مجلة Speculum التي تشرف عليها الأكاديمية الأميركية للعصور الوسطى ، برئاسة الأستاذ ميللر من جامعة كمبردج (ماساشوست) وزمرة من المعاونين الاخصائيين .

والكتاب الذي نعرضه اليوم « الاستيلاء على دمياط » كتب مقدمته مستر جون لامونت المؤرخ المعروف الذي ساهم منذ سنوات في إخراج كتاب التراث العربي ، وقد أوضح في مقدمته الغرض الذي نشرت لأجله تلك المخطوطة فقال إن الحملة الصليبية الخامسة (والسادسة في نظر الآخرين) على أهميتها لم تحظ بعناية خاصة أو دراسة مفصلة ، ولذلك كانت لمخطوطة أوليفر بادربورن أهمية لأنها تعبر عن العقلية المحركة التي سادت الحملة وعصرها .

فالصليبية الخامسة بلغت هدفها ، في سرعة وشجاعة ونجاح ، قلّ أن نشاهد مثيلها في صليبية أخرى ؛ فقد كانت الاستراتيجية العليا لحملات القرن الثالث عشر مهاجمة مصر ، وهي رأس البلاد الإسلامية وقلبها ، والعمل منها على إعادة أورشليم وضمها إلى أحضان المسيحية بعدما فقدتها في مقابل تسليم ما تستولي عليه من بلدان في أراضي سلطان مصر .

وكان زعماء تلك الحملة يعتمدون على قوة بحرية تشد أزر قواتها البرية في حالة بعد مواصلاتها ، كما مر بالحملة الثالثة التي صادف قادتها الأهوال والشدائد في حملة فلسطين ، أما في كلتا الحملتين الرابعة والخامسة فكانت

الخطة العليا هى الهجوم البحرى على مصر والتهديد بالاستيلاء على قطعة من أراضيها يستعيضون فيما بعد عنها أورشليم وغيرها من الثغور الفلسطينية بشروط صلح يرتضيها المحاربان .

وأهم من ذلك أن الحملة الخامسة مشروع بابوى كامل، باركتها الكنيسة الأم فى رومة ولذلك كان معظم رجالها ممن استأجرهم رجال البابا من الألمان وولى قيادتها نائب عن البابا وهو بيلاجيوس فلم يقدها ملك من ملوك المسيحية أو أمير ، كما كان الحال فى الحملات السابقة . ومن أجل ذلك أيضاً كان فشلها على أثر النجاح الذى صادفها فى مبدئها ، وكان أوليفر كاتب المخطوطة من رجال بيلاجيوس وأتباعه الذين يدينون له بكل ولاء . وقد اشترك فى الحملة بقلبه وإيمانه وقلمه ولسانه .

فمخطوطة أوليفر ، والحال كذلك ، منفذ لعقلية روح ونفسية صليبيى القرن الثالث عشر ومنها نقف على ما كان يدور بخلد المقاتلين فى الحملة ، كبيرهم وصغيرهم ، بدافع الشعور الدينى والوعى المسيحى وربما بعيداً عن حب التوسع والتملك .

وأوليفر يمثل المسيحية المتعصبة فى القرن الثالث عشر ، لكننا عندما نقرأ وصفه لمعركة دمياط ، فكأننا نشتم رائحة النار والدم ، ونستمع إلى صليل السيوف والرماح وصهيل الخيل فى المعركة ، وفظائع النار الإغريقية ، وبريق الخوذ المعدنية ، وأنين الجرحى والقتلى من الفريقين وما إليها . . . فهو إذن إلى جانب تدينه ، يشبه المراسل العسكرى فى الحرب الحديثة .

أما المؤرخ الذى ترجم مخطوطة أوليفر من اللاتينية فهو الأب جون جافيجان الأستاذ المساعد للدراسات القديمة فى كلية فيلانوفا — وقد علق عليها وأوضح نقاطها فى حواش وملاحق وفهارس ، فكان عمله جديراً بالثناء ، تتوفر فيه الشروط العلمية الصحيحة .

مهد المترجم فى الفصل الأول (المقدمة) للكتاب : فتكلم فى عدة صفحات عن أوليفر ونشأته وتربيته ومناصبه العلمية التى تولاها ومنها أستاذية اللاهوت فى مدرسة الكاتدرائية التى شغرت بعد وفاة أسقفها ، فارتقت مكانته بين رجال الدين فى كولون وسافر إلى باريس سنة ١٢٠٧ وقصد جامعتها المشهورة .

وفى ذلك الحين ، بدأ البابا اينوسنت الثالث يدعو إلى صليبية لاستعادة

أورشليم ورأى فى أوليفر خير معوان لنشر دعايته فى نطاق عمله ، فقام بمهمته ثم قصد إلى رومة يمثل كبير أساقفة كولون فى مجلس لاتيران الكبير (١٢١٥) الذى قرر أعضاؤه مشروع الصليبية الخامسة فى يونية ١٢١٧ [١] .

ولما عاد أوليفر إلى منصبه جاهد بحرارة فى سبيل الصليبية إلى أن تقرر سفر رجالها من مارسيليا ووصولهم إلى ثغر عكا فى يولية / أغسطس

وواضح من المخطوطة أن كاتبها بدأ فى تسجيل ذكرياته فى أثناء نشوب حوادث الحملة (Historia Damiattina) ثم أكملها فيما بعد ، أى أنها كتبت فيما بين عامى ١٢١٧ و ١٢٢٢ . يتضح ذلك من صيغة الأفعال فهى بين المستقبل والماضى — وآخر حادث مؤرخ هو سبتمبر ١٢٢٢ عندما عقد مجمع دينى فى فيرونة فى ١١ نوفمبر .

ويلاحظ فيما دونه أوليفر ميله إلى بيلاجيوس ، مندوب الحملة البابوى ، وتسامحه وأغضاؤه النظر عما يرتكبه من الأخطاء ، على عكس معاملته لجون دى بريين ، أحد القادة والذى كان فى وقت ما ملكاً لبيت المقدس . كذلك نراه عنيفاً كل العنف على بعض رجال الحملة الذين كانوا من أسباب فشلها . ثم مادحاً لمقاتلى رجال الهيكليين (Templers) . وأهم ما نلاحظه أن أوليفر كتب ثلاثة كتب أخرى هى :

١ — وصف الأرض المقدسة Descriptio Terre Sancte

٢ — تاريخ بيت المقدس والحوادث الهامة المتنوعة إلى عام ١٠٩٩

٣ — تاريخ ملوك الأرض المقدسة Historia Regum Terre Sancte

وقد كتب كتابه الأخير هذا فى خلال حصار دمياط (١٢١٩ — ١٢٢٠)

ويصف أوليفر فى مخطوطته أو رسائله أخبار الحملة الخامسة منذ إقلاع السفن ووصولها إلى دمياط (٢٩ مايو ١٢١٩) وإغارتها عليها ثم مهاجمة المدينة واشتعال الحرب وسقوط الثغر فى أيدى الصليبيين (٥ نوفمبر ١٢١٩) وما ارتكبه المهاجمون والمدافعون من فظائع تقشعر منها الإنسانية ، ونجده يبالغ فى وصف ما اجترحه المسلمون ، ويذكر موت السلطان الملك العادل [٢] وارتقاء الملك

---

(١) مات البابا اينوسينت الثالث فى عام ١٢١٦ ولكن استمر اتباعه فى مشروعه الصليبى .

(٢) كانت وفاة العادل فى ٣١ أغسطس ١٢١٨ م/ ٧ جمادى الثانية عام ٦١٥ (أبو الفداء)

الكامل العرش ، وما تقدم به هذا من شروط للصلح أهمها أن يغادر الصليبيون البلاد المصرية على أن يأخذوا مملكة بيت المقدس ، ولكن الصليبيين رفضوا هذا العرض السخى لأنهم رأوا أن بيت المقدس كانت تحيط به الامارات الإسلامية التى تهددهم بالطرد متى شاء المسلمون .

وبدءوا فى تنفيذ خطة الزحف على القاهرة . ولكنهم أخطأوا التدبير . فاتخذوا طريق التقدم فى قلب الدلتا الذى تكتنفه الترع والقنوات بدلا من اتباع الطريق الذى يخترق الصحراء الشرقية ، على حين استعد الملك الكامل للقائهم برجاله ، وبالجند الذين أرسلهم أمراء الولايات الأيوبية ، ثم لجأ إلى قطع جسور الترع التى تحيط بقوات الصليبيين ، فأحاطتهم المياه ، وأصبحوا فى مواقف لا يحسدون عليها بالرغم من النجدات التى تصلهم بانتظام ، وأخيراً لم يروا بدأ من طلب الصلح [١] واستعاد المصريون دمياط [٢] بعد أن فقد المسيحيون الآلاف من رجالهم والكثير من سفن أسطولهم ، وكانت المياه تزيد يوماً بعد يوم فى فيضانها وتطفو على الجسور وتحاصر المسيحيين وتتعذر مواصلات القوات بعضها مع البعض .

ويوضح لنا أوليفر ممهدات الصلح واجتماع الأمراء المسيحيين ببلاجيوس ومناقشتهم لموقفهم الخطير ، فلما انتهوا من محادثاتهم فى ٣٠ أغسطس ١٢٢١ أقروا شروط السلطان الكامل ، وبدأ المسيحيون فى الانسحاب من دمياط وركوب البحر بعد تلقى الرهائن وإعادة الأسرى إلى الجانبين .

وفى الفصل ٨٢ يعدد أوليفر أسباب هزيمة الحملة فيقول :

"If it is asked why Damietta returned so quickly to the unbelievers يقصد المسلمين the reason is clear; it was luxury-loving, it was ambitious, it was mutinous, besides, it was exceedingly by ungreattful to God and to men."

لقد عزى الهزيمة إلى أسباب معنوية دينية ، ولم يذكر عن الأسباب العسكرية شيئاً .

إنه لجهد علمي يقدر للأب العلامة جون جافيجان ويهنأ عليه . فقد أفاض فى تعليقاته بالكثير من الحواشى المفيدة التى يعرف فائدتها كل المشتغلين بتاريخ العصور الوسطى . . .

عبد الرحمن زكى

(١) الفصول ٧٦ — ٨٠ من المخطوطة وصفحة ٨٧ — ٩١ من الكتاب .

(٢) سلمت دمياط إلى قوات السلطان الكامل فى ٨ سبتمبر ١٢٢١ م ، يوم الأربعاء الموافق ١٩ رجب سنة ٦١٨ هـ (أبو الفداء) .